لعقلية الفلاح الاردني . ومن جهة أخرى ، الفلاحون ، وقد ازعجتهم واخافتهم تصرفات الفدائيين الاستعراضية . فاستداروا بالطبع نحو الملك ، وجيش البدو ، الذي كان « يحميهم » — ويحمي الملك المتطلع الى اميركا .

اذكر يوم وصلت الى اربد قادما من درعا وكان موظف جمارك اردني ينـاهز الخامسة والعشرين قد ركب معنا ، عند مركز الجمارك ، ليصل الى منزله في اربد . وكان سائق السيارة فلسطينيا وما ان وصلنا الى فندق يديره فلسطينيون حتى تركنا السائق . واصر الموظف الاردني على حمل حقيبتي ، ودخل معي الى الفندق . كان الفندق صغيرا جـدا وكانت كل غرفة من غرفه تتسع لاربعة او خمسة اسرة . وكان يعج بالرواد . وبينما استقبلني الفلسطينيون كصديق عاملوا الموظف باحتقار . فسألتهم ، بعد ذهابه ، لما لا يحاولون اقامة علاقة مع موظف اردني متواضع الحال مثلهم ، علاقة صداقة في بادىء الامر ، ثم علاقة سياسية . عندها هز صاحب الفندق كتفيه بلا مبالاة : فالموظف لم يكن فلسطينيا !

ويسألني عصام ايضا اذا كنت لاحظت حين وصولي (نهايـة تشرين ١٩٧٠) تـراجع المقاومة واذا كنت حللت اسباب هذا التراجع . وبما انني كنت بين الفدائيـين ، فكان من المستحيل الا ارى ما يجري . ولفتت انتباهي حينذاك حالة البهجة والسرور التي كانت تسود احراج عجلون والسلط ، والنابعة من كون الفدائيين قد استطاعوا الافلات من جحيم عمان . وكانوا يتحلون ببهجة الشباب ، وضحكه وطيشه ، بينمـا كان ذلك غائبا عن الجيوش النظامية . ولكن هذه البهجة كانت ستارا للهزيمة ، الا في بعـض حالات تسليم الاسلحة ، حيث كانت علائم الهزيمة تظهر في حساسية حادة . اما اسباب تلك الهزيمة فكان يصعب علي تحميل المقاومة وحدها مسؤوليتها . اذ كنت ارى رغما عني ، صفقات دول كبرى ومساوماتها . وما زالت حتى الان اسئلة عديدة دون اجابة .

الفدائي كانسان

سؤال : كيف كانت نظرتك للفدائي كانسان ؟ ما هو رايك في منطلقات التزامه الى حد التضحية التامة ، وفي الاهداف التي يقاتل من اجلها ؟

ما يراودني قبل كل شيء ، ويذهلني ايضا ، هو حرية التعبير الكبيرة التي كان يمارسها الفدائي . وكلمة « مذهـل » ليست مبالغة في وصف تلك الظاهـرة . كان في وسعهم — اذا شاؤوا — التكلم في اي موضوع . لا أذكر اي موضوع محظور عليهم . كـانوا مهتمين بما يجري في الصين وكوبا ، وفي باريس بعض الشيء . كانوا يتطرقون الى كل المواضيع ، ويعالجونها بمزيج من الخفة والرصانة .

وبدون المام يذكر باللغة العربية ، كنت اشعر ان اللغة التي يستعملونها كانت ابسط من سواها ، وكانها افرغت من الزركشات المألوفة . فالوقائع والتعابير البسيطة كانت اهم من التعليقات عليها ، الا اذا كانت تلك التعليقات وقائع لا احكاما .

كان مظهرهم بهيا . كان هناك ما اسميه بالجمالية الفدائية . فاخلاقيتهم كانت تذوب في جماليتهم . هذا فيما يختص بالمظهر الخارجي . اما داخلهم فكان اقـل وضوحا واشد قسوة في آن واحد . فكلمة « ثوار » كلمة تستعر نارا . كانـوا يحملون ارادة انجاز تحول تاريخي مزدوج : قيادة الثورة الفلسطينية مـن خلال التحرير لتشمـل الشعب العربي بأجمعـه ، واستعادة فلسطين . بالنسبة للهـدف الاخير ، كـانت الجماهير الفلسطينية في المخيمات او خارجها مطلعة على الموقف ، اما تثوير العالم العربي فلـم تكن تعرف عنه شيئا . لذلك جاء دعم الفدائيين كمقـاومين ، وتم تجـاهلهم كثوار . فاصيبوا بنوع من العرج المعنوي كاد يفقدهم توازنهم . من الممكن تغيير كل هذه الامور